

## الفصل التاسع

### الحركة الصوفية ودورها في مواجهة الغزو الصليبي للمغرب

#### معركة وادي المخازن نموذجاً (٩٨٦هـ/١٥٧٨م)

امحمد جبرون

دكتوراه في التاريخ، أستاذ التعليم العالي بطنجة، المغرب

jebroun1@yahoo.com

المقدمة :

إنَّ الأَوْضَاعَ التي كان يعيشها المغرب، وجاهزيته العسكرية، لا تُسَعِّفنا في فَهْم هذه المواجهة بين الجيش المغربي والجيش الصليبي البرتغالي، كما لا تسعفنا أبداً في فَهْم حَجْم النَّصْرِ الذي ظفَّر به المغاربة، فإذا كانت العوامل الموضوعية المُفسِّرة لهذا الحدث/الإنجاز - قطعاً - توجد خارج الدولة، وخارج المعطيات المادية للجيش المغربي، فإنها في المقابل تقع في قلب المجتمع، وما كان يعمل فيه من حركات وتيارات ثقافية وروحية، وعلى رأسها الحركة الصوفية، وسأحاول في هذه الدراسة تسليط الضوء على هذا العامل ودوره في تحقيق نصر وادي المخازن.

ومن أجل تحقيق هذا الغرض رجعتُ إلى جملة من المصادر التي لا غنى عنها في هكذا دراسة، ومن أبرزها: جملة من مُصَنَّفَات التَّراجم الصُّوفِيَّة، مثل: (مرآة المحاسن من أخبار الشيخ أبي المحاسن) لمؤلفه محمد العربي الفاسي (توفي ١٠٥٢هـ)، و(صفوة من انتشر من أخبار صلحاء القرن الحادي عشر) لمحمد بن الحاج الصغير الإفرائي، و(سلوة الأنفاس ومحادثه الأكياس من أقبر من العلماء والصلحاء بفاس) لأبي عبد الله محمد بن جعفر الكتاني (توفي ١٣٤٥هـ)، و(دوحة الناشر) لمحمد بن عسكر الشفشاوني، قاتل معركة وادي المخازن، بالإضافة إلى (نشر الثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني) لمحمد بن الطيب القادري،...

أمَّا فيما يتعلق بالمصنفات التاريخية فقد رجعتُ إلى أكثر من نصٍّ، غير أنَّ أهمَّ هذه النصوص فائدةً لموضوعي: كتابُ (نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي) لمحمد

إنَّ حُرُوبَ (الاسترداد) التي شنتها الممالك المسيحية في شبه الجزيرة الإيبيرية على مُسلمي الأندلس لم تنته بسقوط غرناطة وطرِد المسلمين منها وَهُمْ في أسوأ حال سنة ١٤٩٢م، بل استمرت بوتيرة أقوى في بعض اللحظات ممَّا كانت عليه في الأندلس، مستهدفة الضفة الجنوبية للبحر الأبيض المتوسط، حيث المغرب الأقصى، الذي قدَّم، في البدء والختام، تضحيات جسماً؛ من أجل الأندلس واستمرار الإسلام فيها. وقد اتخذت هذه الحروب طابعاً صليبيّاً واضحاً، تجلَّى في الدَّعم القوي الذي قدَّمته الكنيسة الكاثوليكية لقيادة الحرب وجنودها، ومشاركة جنسيات أوروبية مختلفة في معاركها ومُصادماتها والشعارات والأهداف المرجوة من الحرب (نشر المسيحية).

لقد تركت هذه الحربُ الدِّينية والحضارية الشَّنيعة في البداية على السواحل، حيث احتل البرتغاليون والإسبانُ مُعظم المَدَن والثغور البحرية المغربية على الواجهتين المتوسطية والأطلسية، في مُددٍ متقاربة، ثم بعد ذلك انفتحت شَهِيتُهُم للتوغُّل داخل البلاد، وانتهاز فرصة الانقسام السياسي وانهايار الدولة في عهد الوطاسيين لتحقيق هذا الغرض، وبأقل كلفة، وتوافق هذا التحول مع وجود حاكم صليبي طموح في دولة البرتغال، وهو (سبستيان)، الذي قرَّر المغامرة باحتلال الداخل المغربي، بالرغم من إظهاره خلاف ذلك، من أن هدفه لا يتجاوز السَّواحل، فكانت معركة وادي المخازن الشهيرة التي غيرت وجه التاريخ في الغرب الإسلامي، ونسفت الأحلام الصليبية في هذه الناحية من العالم الإسلامي.

لقد انتهى المربونيون في أواخر ق. ٩هـ إلى حالة من الضعف يصعب معها الاستمرار في السلطة، الأمر الذي استغلّه الوطاسيون<sup>(١)</sup> فوثبوا على الحكم سنة ٨٧٦هـ/١٤٧١م، وسيطر أحد أعيانهم، وهو أبو عبد الله محمد الشيخ ابن أبي زكرياء الوطاسي (ت. ١٥٠٥م) على العاصمة فاس وأحوازها، وحاول بسط نفوذه على الريف وتطوان شمال المغرب، وبعد وفاته خلفه ابنه محمد المعروف بالبرتغالي سنة ٩١٠هـ، الذي كان أسيراً لدى البرتغاليين في سالف عهده، وانشغل بجهد البرتغاليين في بلاد الهبط، تاركاً وراءه سائر البلاد المغربية، الأمر الذي هيأ الفرصة للأشراف السعديين للظهور وتأسيس شرعيتهم السياسية، ولم ينتبه محمد الوطاسي (البرتغالي) للخطر السعدي إلا بعد سيطرة أبي العباس الأعرج السعدي (توفي ١٥٥٧م) على مراكش بالاتفاق مع أمراء قبيلة هنتاتة، فقرر التوجه لمقاتلتهم في المدينة الحمراء، ورحل بجيش عظيم نحوها، وجد في حصارها، ونزل عليها أياماً، فلم يتمكن من فتحها، وعاد أدرأجه نحو فاس، يجر وراءه ذبول الخيبة والفشل، بعدما بلغه قيام أبناء عمه عليه، وبذلك فشلت أبرز محاولة وطاتية للقضاء على الدولة السعدية في بدايتها.

وبعد وفاة أبي عبد الله محمد الوطاسي البرتغالي، خلفه ابنه أبو العباس أحمد الوطاسي (توفي ١٥٤٩م)، الذي اضطر لمهادنة البرتغاليين في بلاد الهبط، وآسفي، وأزمور، والجديدة، وتفرغ لمقاتلة السعديين، وكانت بينه وبينهم وقائع، من أبرزها: وقعة أنماي بالقرب من مراكش سنة ٩٣٥هـ، ووقعة أبي عقبة في وادي العبيد ٩٤٢هـ، ووقعة وادي درنة، وفشلت في أثناء هذه الحروب كل محاولات الصلح التي كانت تروم اقتسام المغرب بين السعديين والوطاسيين<sup>(٢)</sup>.

لقد حاول الوطاسيون تجديد الدولة شبه المنهارة، ومواجهة التحديات السياسية والعسكرية الصعبة، غير أن محاولاتهم باءت بالفشل، واستمرت الاضطرابات والآفات التي طبعت آخر عهد المربنيين، إن لم تكن قد زادت، ومن أبرز هذه الآفات:

أ- التفكك السياسي للدولة المغربية؛ إذ اقتصر نفوذ

الصغير الإفرائي، السالف ذكره، وكتاب (عمدة الراوين في تاريخ تطاوين) للفقير أبي العباس الرهوني، بالإضافة إلى (المنتقى المقصور في مآثر مولانا المنصور) لابن القاضي، و(الاستقصا) للناصري،...

ومع أهمية هذه المصادر، وتعددتها، وتنوعها، فإن تغطية حدث معركة وادي المخازن ضعيفٌ مُلتبس، وتنقصه الكثير من التفاصيل، وهو ما جعلني في بعض الحالات ألجأ إلى تأويل بعض المعطيات، والسعي إلى بناء استنتاجات، انطلاقاً مما توفر؛ نظراً لغياب الوثيقة التي قد تذهب بي رأساً إلى النتيجة.

وقد قُمتُ بمعالجة هذا الموضوع من خلال المحاور الآتية:

أولاً: الأوضاع السياسية في المغرب الأقصى خلال القرن العاشر الهجري.

ثانياً: الحركة الصوفية في مغرب القرن ١٠هـ/١٦م واستعدادها الجهادي.

ثالثاً: دور الحركة الصوفية في نصر معركة وادي المخازن. رابعاً: الانعكاسات السياسية والحضارية لمعركة وادي المخازن.

أولاً: الأوضاع السياسية في المغرب الأقصى خلال القرن ١٠هـ/١٦م

تميّزت الأوضاع العامة في المغرب الأقصى خلال القرن العاشر الهجري بالاضطراب، وعدم الاستقرار، فقد شهد هذا القرن من جهة نهاية الدولة المرينية، مع ما يُصاحب عادةً نهايات الدول من تفكك سياسي، واختلال أممي، وتدخل أجنبي، إلخ، كما عرّف من جهة ثانية تأسيس دولة الأشراف السعديين، الذين حاولوا تدارك الرّقي الحاصل، واستعادة الوحدة السياسية للقطر المغربي، ومقاومة الغزو الإيبيري لسواحله، إلخ. كما تزامنت هذه الاضطرابات مع بروز قوى دولية وإقليمية طامعة ومتحفزة لبسط سيطرتها على المغرب، ومن أبرز هذه القوى: الخلافة العثمانية المتربّصة به على الحدود مع الجزائر، والقوى المسيحية (الإسبانية والبرتغالية) التي انتهزت فرصة الضعف، وسيطرت على معظم الثغور المغربية الأطلسية والمتوسطية.

القرن العاشر، وأبرز مثال على هذا التدخل نُصرتهم لأبي حُسُون الوطَاسي (٩٦١هـ)، ودعمه بالجنود لاسترجاع مُلكه الصَّائغ، الذي سَلَبَهُ منه محمد الشيخ السَّعدي سنة ٩٦١هـ.<sup>(٦)</sup> ولم يقتصر تدخل العثمانيين في الشأن السياسي المغربي على عهد الوطَاسيين، بل استمرَّ فيما بعد خلال حُكم الأشراف السَّعديين بأشكالٍ مختلفة.<sup>(٧)</sup>

لقد استغلَّ السَّعديون الظروف الصَّعبة التي مرَّ بها الوطَاسيون في أثناء فترة حُكمهم القصيرة لِلظَّفَر بالحُكم، واستطاعوا بقيادة محمد الشيخ السَّيطرة على فاس، وأَسَرَّ آخر سلاطينها الوطَاسيين سنة ٩٥٦هـ، وبذلك تَمَّ لهم المُلك على سائر بلاد المغرب، وقد حاول أبو حُسُون الوطَاسي، الذي كان لاجئاً في الجزائر، استرجاع مُلك أجداده بدعم من الأتراك، غير أنَّ محاولته فشلت، واستتبَّ الأمر لِلسَّعديين بِصفةٍ نهائيةٍ بِحلول سنة ٩٦١هـ.

عمل السَّعديون بعد القضاء على الوطَاسيين على توحيد البلاد، والقضاء على النزعات الاستقلالية، وبعض الفتن، التي كانت منتشرة في أكثر من جهة من جهات المغرب، وفي هذا السياق تَمَّ القضاء على إمارة بني راشد في شفشاون من بلاد الرِّيف، وفتنة الفقيه أبي عبد الله الأندلسي (٩٨٠هـ)، وبدعة الشارقة... غير أنَّ أسوأ ما واجه دولة الأشراف في بدايتها هو الصِّراع بين أفراد البيت السَّعدي على الحُكم، واستعانة بعضهم بالأجنبي لِحَسْم هذا الصِّراع، وكذلك استمرار الاحتلال البرتغالي والإسباني لمُعظم الثغور المغربية.<sup>(٨)</sup>

إنَّ معركة وادي المخازن التي تَوَاجَه فيها الجيشان، السَّعدي والبرتغالي، سنة ٩٨٦هـ / ١٥٧٨م، عَكَسَتْ -من جهة- مجموع التَّحدّيات التي واجهت الدولة الجديدة، سواء على الصعيدين الداخلي والخارجي، ومن جهة ثانية شكَّلت مناسبة تاريخيةً سياسيةً وعسكريةً لِلحسم مع جُلِّ هذه التَّحدّيات؛ فانتصار الجيش السَّعدي كان يعني نهاية شبه تامّة للأطماع الأجنبية في المغرب، وتوحيداً لِلسلطة

الوطَاسيين على مناطق محدودة في الشَّمال، بما في ذلك العاصمة فاس، في حين بقيت مناطق الصَّحراء وما يليها شمالاً إلى تخوم فاس خارج سيطرة الوطَاسيين، وفي أحسن الأحوال ترتبط بهم ارتباطاً شكلياً، ومن ثَمَّ عَجَزوا عن توحيد الدولة وَضَبْطها، وهو ما أدَّى إلى ظهور إماراتٍ شبه مُستقلة في أنحاء مُتفرقة من المغرب، ومن أشهر هذه الإمارات إمارة بني راشد في الرِّيف الغربي، وعاصمتها مدينة شفشاون، والهناتيون في مراكش.<sup>(٩)</sup>

ب- تفاقم المُشكلات الأمنية؛ وذلك بسبب تراخي الدولة وضعف سطوتها من جهة، واستمرار المشكلة الاقتصادية للعرب القادمين إلى المغرب في عهد الموحَّدين من جهة ثانية، الذين لم يتخلَّوا بِصفةٍ نهائيةٍ عن حياة التَّرحال، وأسلوب الفَضْب، وإكراه المُستقرين في الشُّهول والمدن على دَفْع الإتاوات...، وكانوا يستغلُّون فترات ضُعف الدولة ليعودوا إلى عاداتهم في الوثوب على أملاك الغير، الأمر الذي أدَّى إلى كساد اقتصادي كبير، أصاب سائر القطاعات الاقتصادية، وبخاصة التجارة والفلاحة.<sup>(١٠)</sup>

ت- استمرار التَّزيف التَّرابي لِلظَّفَر المغربي، إذ تَمَكَّن الإيبيريون (البرتغاليون والإسبان) في عهد الوطَاسيين من احتلال مُعظم الثغور البحرية المغربية على الواجهتين المتوسَّطية والأطلسية، ومن أبرز هذه الثغور: طنجة (٨٦٩هـ)، وأصيلا (٨٧٦هـ)، والجديدة (٩٠٧هـ)، والعرائش (٩١٠هـ)، وآسفي (٩١٢هـ)، وملييلة (٩٠٣هـ)، وبادس (٩٧٢هـ).<sup>(١١)</sup> ولم يتمكَّن الوطَاسيون من ردِّ العدوان الإيبيري، بالرغم من مُحاولاتهم المُتكررة في أكثر من ثغر؛ نظراً لِفاقر القوة بين المجانين.

ث- تدخل الأتراك العثمانيين، انطلاقاً من ولاية الجزائر في الشأن الداخلي المغربي، وتغليبهم كفة طرف على سائر الأطراف المتصارعة على الحُكم في المغرب

لقد جعلت التطورات الكبيرة التي عرفتھا الظاهرة الصوفية في أواخر القرن التاسع، وبداية العاشر، من التصوف عاملاً مؤثراً، وفي بعض الأحيان حاسماً على مستوى الشرعية السياسية للدولة المغربية، وتجلّى هذا الدور بوضوح في تأسيس دولة الأشراف السعديين، فهي تكاد تكون بـ"أمر صوفي"، كما تدل على ذلك النصوص التأسيسية التي نقلها غير واحد من المؤرخين: كالإفراني، وابن عسّكر، والتي تعطي أبا عبد الله محمد بن المبارك أو سيدي البركات دوراً محورياً في توجيه الناس وقبائل الجنوب إلى بيعة السعديين بسوس،<sup>(١٥)</sup> إذ لم يكن ممكناً ولا وارداً في المائة العاشرة قيام كيان سياسي دون تأييد صوفي. ويُعد سيدي البركات من أعلام التصوف ورموزه، توفي في صدر العشرة الثالثة، ذكر من ترجم له مناقب عديدة.<sup>(١٦)</sup>

ومن ثم، يُعد القرن العاشر الهجري من أزهى الفترات التي مرّت بها الحركة الصوفية في المغرب الأقصى مقارنة بما حصل في القرون السابقة؛ إذ تحققت لها الهيمنة الاجتماعية والثقافية والسياسية بصورة غير مسبقة، وقد ساعدها على ذلك مجموعة من العوامل التي من أبرزها ظهور مجموعة من أعلام وأقطاب التصوف في المجال المغربي، اجتمع حولهم المريدون من مختلف الطبقات والأحباء، وأشد هؤلاء الأقطاب تأثيراً: الشيخ أبو محمد عبد الله الغزواني، الذي "إليه انتهت المشيخة الكبرى في هذا العصر؛ إذ عنده تلتقي الطرُق الموصلة إلى الشيخ التّباع والشيخ الجزولي"،<sup>(١٧)</sup> أدرّس بفاس ومراكش، واختص هناك بالشيخ أبي فارس عبدالعزيز التّباع، وامتنح من طرف السلطان محمد الشيخ المريني، وسجن مدة بفاس، ثم أطلق سراحه، ورحل بعد مقام يسير بفاس نحو مراكش؛ إذ تزامن دخوله إليها مع ظهور السعديين فيها، فدخل في طاعتهم، وتوفي بمراكش حوالي سنة ٩٣٥هـ،<sup>(١٨)</sup> ومن أشهر تلامذته الذين اتبعوا طريقته، وعملوا على نشرها: أبو الحجاج يوسف التليدي (توفي حوالي ٩٥٠هـ)، وأبو البقاء عبد الوارث بن عبد الله البلصوتي (٩٠٧هـ)، وأبو الحسن علي بن عثمان الشاوي (مات حوالي ٩٤٠هـ)، وأبو محمد عبد الله الهبطي

والدولة في المجال المغربي، كما أن انتصار الجيش البرتغالي كان يعني المزيد من التوغل الأجنبي، واستمرار الانقسام السياسي في المغرب.

ثانياً: الحركة الصوفية في المغرب في القرن ١٠هـ / ١٦م واستعدادها الجهادي

تميّزت علاقة المتصوفة في الدولة المغربية بالتقلب وعدم الاستقرار؛ ففي البدايات الأولى للتصوف في المغرب، وتحديدًا في أواخر القرن الخامس وبداية القرن السادس الهجريين، عانى أهله من التضييق والإنكار الشديد، وتصدّت لهم طائفة من الفقهاء في عدوئي المغرب والأندلس، وبلغت حملة قمع المتصوفة ذروتها بإقدام أمير المسلمين علي بن يوسف المرابطي (توفي ٥٣٧هـ) على إحراق كتاب (إحياء علوم الدين) للإمام الغزالي سنة ٥٠٧هـ،<sup>(١٩)</sup> وأمره الفقهاء والقضاة بالتفتيش على أصحاب البدعة وكُتبيهم، والمبادرة إلى حرقها،<sup>(٢٠)</sup> وفرضه الإقامة الإجمالية على بعض أقطاب المتصوفة الذين كان يجتمع حولهم الناس، أمثال: ابن العريف (توفي ٥٣٧هـ)، وابن برجان (توفي ٥٣٦هـ).<sup>(٢١)</sup>

لكن بعد ذهاب المرابطين، ومجيء الموحدين تحسّنت علاقة المتصوفة بالدولة، وارتفع ما كانوا فيه من شدة وضيق، وأبلغ إشارة في هذا السياق التسامح تقريب يعقوب المنصور الموحدي (٥٩٥هـ) لأحد شيوخ التصوف المقيمين بمراكش.<sup>(٢٢)</sup> وقد استفادت الحركة الصوفية في عهد الموحدين من التقاطعات الفكرية والعقدية بين المذهب التومرني (الموحدي) والمذهب الصوفي، وتلخص أبرز نقط التقاطع هاته في مفاهيم: الولاية، والمهدوية، والإمامة، والعصمة...<sup>(٢٣)</sup> واستمر الحال على هذا النحو حتى قدوم المرينيين، الذين حرصوا على نهج الاعتدال في علاقتهم بالمتصوفة، واحترام تعاليم المذهب المالكي، فلا هم حصنوهم وأيدوهم، ولا هم قمعوهم وحاربوهم،<sup>(٢٤)</sup> وقد أدّت هذه الغفلة المتعمدة مع مرور الوقت، وبفعل عوامل اجتماعية وثقافية وسياسية جديدة إلى صحوة صوفية قوية، عمّت سائر بلاد المغرب، وانتشرت في المدن والقرى على حد سواء، وهو ما استفاد منه -سياسياً- الأشراف السعديون.



إلى الإسلام، من قبيل إنكار بُيُوتِ مُحَمَّدٍ، صلى الله عليه وسلم، وتَرْكِهِمُ الصَّلَاةَ والصَّيَامَ، واعتقادِهِمْ حِلْيَةَ أَكْلِ المَيْتَةِ والخَتِيزِ، وحِلْيَةَ الرِّثْيِ...، وكان جُلُّ أَتْبَاعِ هذا "الزناديق" من بدو العرب والبربر، وأهل الشَّهَوَاتِ مِنَ الحَوَاضِرِ.<sup>(٢٦)</sup>

والطائفة الثانية التي وصفها المؤرِّخونَ بالابتداع الطائفة الأندلسيَّة التي كان يقودها محمد الأندلسي، والتي اشتهرت بالانتقاد الشديد لأئمة الإسلام، والجرأة على مقام النبي - صلى الله عليه وسلم - على ما يحكي خصوصاً،<sup>(٢٧)</sup> غير أنَّ أعدل الأقوال حول هذه الطائفة في نظري هو قول ابن عسكر في (الدوحة)، والذي سبق له أن لقي الأندلسي وذاكره في آرائه، إذ قال عنه: "كان يتصل من أكثر ما نسب إليه، ويظهر التمسك بالسنة، والإضراب عن القول بالرأي والقياس، ويعيب طريقة الفقهاء".<sup>(٢٨)</sup>

ولم يقتصر النفوذ الصوفي خلال المائة العاشرة على النواحي الاجتماعية والسياسية، بل تعدَّها إلى المجال الثقافي؛ إذ شهد هذا القرن نهضة فكرية وثقافية صوفية، تجلَّتْ أساساً في ظهور العديد من المؤلفات التي ما زال بعضها حاضراً إلى الآن، ومن أشهر هذه المصنفات: كُتُبُ الشُّرُوح التي تناولت شرح "الصلاة المشيشية" لمؤلفها مولاي عبد السلام بن مشيش (٦٢٥هـ)، و"دلائل الخيرات" للإمام محمد بن سليمان الجزولي، و"حكم" ابن عطاء الله السكندري...؛ وكتب مستقلة في مباحث صوفية محدَّدة، ككتاب "مراتب الأولياء وحقيقة القبطانية"، و"آداب المريد وأسرار العبادات" وكلاهما لأحمد الصومعي، وكتاب "السَّماع والرَّقص عند التواجد" لأحمد الفاسي، إلخ،<sup>(٢٩)</sup> وعشرات النصوص الأخرى ممَّا لم يَتمكَّن المترجمون والباحثون من إحصائها.<sup>(٣٠)</sup>

وممَّا تميَّزت به الحركة الصوفية في القرن العاشر الهجري عنايتها بفريضة الجهاد عنانية نظرية وعملية؛ فقد وجدت الحركة الصوفية نفسها في هذا الطُّور من تاريخ المغرب وجهاً لوجه أمام الغزو الصليبي الإيبيري المزدوج البرتغالي والإسباني، في وقت كانت فيه الدولة تعاني من مشاكل عدم الاستقرار، والصراع على السلطة بين الطامعين والطَّامحين من أنساب وجِهاَتٍ مختلفة.

(٩٦٣هـ)، وأحمد الحداد الخمسي (٩٦٢هـ)، وعمر الزياتي (مات حوالي ٩٦٠هـ)، ومحمد الطالب (٩٦٤هـ)...<sup>(٣١)</sup>

وكانت الطريقة المفضلة لصوفية المغرب في المائة العاشرة والغالبة عليهم هي الطريقة الجزولية الشاذلية، التي تتكوَّن في عمومها من مجموعة من الأوراد والأذكار، وآيات وسُور من القرآن الكريم موزعة على اليوم واللييلة، وتُسمَّى بـ "الحرب"، وهو "الورْدُ المعمول به تعبدًا ونحوه، وهو في الاصطلاح: مجموع أذكار وأدعية وتوجُّهات وُضِعَتْ لِلذِّكْرِ، والتَّذكير، والتَّعوُّذ من الشَّرِّ، وطلب الخير، واستنتاج المعارف، وحصول العلم مع جمع القلب على الله - سبحانه - بذلك"،<sup>(٣٢)</sup> وتختلف هذه المنظومة من الأذكار والأوراد في بعض التفاصيل من شيخ إلى آخر، فمثلاً: الشيخ زروق يختلف عن الجزولي في بعض الجوانب، والجزولي يختلف عن الشاذلي، سواء بالزيادة أو النقصان، وقد ذكر أبو المحاسن في (المراة) نماذج من هذه "الأحزاب".<sup>(٣٣)</sup>

وقد كان المغاربة خلال المائة العاشرة مُصنِّفين تصنيفاً طرقيّاً غريباً؛ فالتَّاس طوائف: إمَّا من أتباع هذا الشيخ أو ذاك،<sup>(٣٤)</sup> إلى درجة جعلت السَّعديين يتخوَّفون على حكمهم من هؤلاء الشيوخ؛ لأنَّهم - أي السَّعديين - دخلوا الملك من بابهم،<sup>(٣٥)</sup> وقد ردَّدت المصادر التاريخية صدئ هذه المخاوف عندما أوردت قيام السلطان أبي عبد الله الشيخ بامتحان أرباب الزوايا خوفاً على حكمه؛ ففي سنة ٩٥٨هـ أزعج هذا السلطان الشيخ أبا محمد عبد الله الكوش (٩٦٠هـ) من بلده مراکش، وألجأه إلى مدينة فاس، وأخلَّى زوايته بعدما بعد صيته وكثر أتباعه، وتحدَّث النَّاس بالكرامات عنه،<sup>(٣٦)</sup> كما حاول امتحان الشيخ أبي عثمان سعيد بن أبي بكر المشتراي، دفن مكناسة (مات حوالي ٩٦٠هـ)،<sup>(٣٧)</sup> وامتدَّت يده إلى غيرهما.

إنَّ انتشار التصوف على نطاق واسع بين مختلف طبقات المغاربة، وتنوُّع مساريه واتجاهاته الفكرية أدَّى إلى ظهور بعض الطوائف المبتدعة والمنحرفة، التي سلكت "طريقاً" شاذاً في العبادات والعقائد...، ومن أبرز هذه الطوائف: طائفة العكاكزة، التي قادها أحمد المتزولي خلال المائة العاشرة، وشرع لأتباعه شرائع منكَّرة، لا تمتُّ بِصِلَةٍ

الثراب المغربي، وقد سجّل العلامة المؤرخ محمد حجي هذه المنقبة لرجال التصوف المغاربة بنوع من الاستغراب، قائلاً: "هناك ظاهرة غريبة... ألا وهي كثرة تطوع العلماء ومشاركتهم الفعلية في المعارك وحراسة الثغور. فمن الإمام ابن غازي وتلميذه علي بن هرون، اللذين طالما خرّجا في الحركات الجهادية تحت لواء الوطاسيين، إلى الشيخ أبي المحاسن الفاسي ومحمد بن ريسون العلمي، اللذين أبليا البلاء الحسن في معركة وادي المخازن، إلى محمد بن إبراهيم وعبد الرحمن بن محمد التمارتين، اللذين كان لهما حظ وافر في محاصرة المحتلين وحراسة الثغور السوسية، إلى عبد الواحد بن عاشر وعبد الهادي بن طاهر، اللذين حملوا السلاح إلى جانب المجاهد العياشي".<sup>(٣٥)</sup> وبالإضافة إلى هؤلاء هناك محمد بن يحيى البهلوي، الذي لازم باب الجهاد في بلاد الهبط،<sup>(٣٦)</sup> والشيخ أبو الحسن علي بن عثمان الشاوي، تلميذ الغزواني، استشهد - رحمه الله - في وقعة "الحر" التي كانت في حدود الأربعين ضد النصاري على مقرية من أصيلا،<sup>(٣٧)</sup> والفقير عبد الله الورياغلي (توفي حوالي ٩١٠هـ)، الذي كان يُقسّم وقته بين تلقين العلوم شتاءً وجهاد العدو في الثغور الهبطية صيفاً.<sup>(٣٨)</sup>

١- مجمل خبر معركة وادي المخازن سنة ٩٨٦هـ/ ١٥٧٨م:

عقب وفاة السلطان الغالب بالله سنة ٩٨١هـ، تولى ابنه أبو عبد الله المتوكل بعد بيععة شرعية انتظم فيها جل أهل فاس ومراكش، ولما انتهى خبر هذا الحادث إلى مسامع عمّيه: عبد الملك، وأحمد، اللاجئين إلى الجزائر في ضيافة الأتراك، طمحت نفساهما إلى الملك، وعزما على سلبه من ابن أخيهما، فطلبوا المساعدة من السلطان سليم العثماني، الذي لم يتردد في ذلك، فأمدّهما بالسلاح، وأمر أترك الجزائر بدعمهما بالجند وآلة الحرب.

وقد تمكن عبد الملك السعدي وأخوه أحمد بمساعدة العثمانيين من طرد المتوكل من العاصمة فاس، وملاحقته في أنحاء المغرب المختلفة في مراكش وسوس وجبال درن (الأطلس الكبير)، والشمال... إلى أن لجأ إلى نصاري العدو، إذ اضطرت شوهة الملك إلى الاستنصار بملك البرتغال

وقد ظهر تحفّز المتصوفة للجهاد والدّود عن حمى الدولة والوطن في عدد من الأعمال النظرية التي ألّفت في هذه الفترة، ومن أبرز هذه الأعمال وأشهرها؛ نظراً لشهرة مؤلفيها وتأثيرهم البعيد في الحياة الفكرية والروحية للمغاربة: كتاب (تنبيه الهمم العالية) لمحمد بن يجيش التازي (٩٢١هـ)، ويتضمّن نظماً ونثراً ينبّه الهمم العالية على «الصدقة والانتصار للملّة الرّكّية، وقمع الشرذمة الطاغية، عجل الله دمارها، ومحا بواثر المسلمين آثارها»، وفصل فيه التّأزي الكلام على أحكام الرّباط والجهاد في البرّ والبحر...، ونبّه فيه مواطنيه إلى الأخطار المحدقة بهم، واستعداد العدو للانقضاض عليهم...، ويصحب ذلك بالتفجّع على سوء أحوال المسلمين وما يلاقونه من هوان واسترقاق على يد المسيحيين في عدوتهم المغرب والأندلس...، ويختتم الكتاب بقصيدة طويلة يحضّ فيها على الجهاد ويستنهض الهمم للثّورة.<sup>(٣٩)</sup>

والشيخ محمد بن يجيش التّازي من كبار شيوخ الصّوفية في المائة العاشرة، لقّبه وتلقّى عنه أبو محمد عبد الله الهبطي، وغيره من كبار رجال هذا القرن، يقول عنه ابن عسكّر: «فهذا الشيخ ممّن ساد فأجاد، واتّكا عليه الرّمان فكان له نعم الوساد، وقد وقفت على تأليف له ألفه في الحضّ على الجهاد... فكان ممّا ينبغي أن يتناول باليد، ويكتب دون المدا باللّجين».<sup>(٤٠)</sup>

ومن الأعمال الأخرى الداعية إلى الجهاد في هذه الفترة كتاب "فك السعادة الدائر بفضل الجهاد والشهادة" لعبد الهادي بن طاهر الحسني، وهو من أهمّ كتب المرحلة المتعلّقة بالجهاد، كتبها أحد خبّاء الجهاد ممّن كان لهم مراس واحتكاك بالمجاهد العياشي (١٦٤١م) الذي كان ينشط في الشمال،<sup>(٤١)</sup> بالإضافة إلى أشعار وقصائد عديدة ألفها الشيخ أبو عبد الله محمد البهلوي (توفي حوالي ٩٣٠هـ).<sup>(٤٢)</sup>

أمّا من النّاحية العملية، فلم يكتف متصوفة المغرب في القرن العاشر الهجري بالدعوة إلى الجهاد والحضّ عليه، بل تجاوزوا ذلك إلى الانخراط العملي في الأعمال الجهادية، والمشاركة في الحملات العسكرية التي كانت تستهدف تحرير الثغور المحتلة، ووقف تقدّم النصاري الإيبيريين داخل

ثالثاً: دور الحركة الصوفية في نصر معركة وادي المخازن

من المشاكل التي يعاني منها التأريخ لمعركة وادي المخازن، والأحداث المرتبطة بها...، قلة الوثائق والمصادر التي من شأنها تسليط الضوء على الجوانب المعتمدة من المعركة، ومن القضايا التاريخية التي تعاني من الغموض، ولم تطرقها المصادر كفاية، دور المتصوفة في غزوة وادي المخازن، فيالرغم من تواتر الأخبار حول المشاركة الحاسمة للمتصوفة في هذه الواقعة، فإن المعلومات والأخبار عن تفاصيل هذه المشاركة وأطرافها محدودة وقليلة، وأقل ما يُقال عنها: إنها لا تناسب حجم إسهام الصوفية في هذا الحدث، لكن، وبالرغم من هذا النقص، سَأحاول من خلال ما تبقى من إشارات في ثنايا المصادر تقديم صورة عامة عن هذا الدور.

فقد شاركت الحركة الصوفية بكثافة في ملحمة وادي المخازن، ولم تقتصر المشاركة على طبقة المريدن والأتباع، بل تعدتهم إلى الشيوخ والرموز. وتشير كتب التراجم والمصادر التاريخية التي تحدثت عن هذه المعركة إلى بعض أخبار هذه الفئة من عسكر المسلمين، وربما لن أجانب الصواب إذا قلت: إن إسهام رجال الصوفية وأوليئهم في معركة وادي المخازن كانت أقوى من غيرها من فرق الجيش المغربي، ورَجَحَت كفة المسلمين على أعدائهم من كفرة البرتغال والإسبان، يقول صاحب "الثروة": «هذه الغزوة من الغزوات العظيمة، والوقائع الشهيرة، حَضَرَهَا جَمٌّ غفير من أولياء الله تعالى، حتى أنها أشبه شيء بغزوة بدر»<sup>(٤٠)</sup>.

ويمكن التمييز بين دورين أساسيين في إسهام الحركة الصوفية في هذا الحدث التاريخي: دور تعبوي، تجسّد في مجموعة من الأنشطة والتحرّكات التي كانت تستهدف تحميس المغاربة، وحثهم على الثبات والجهاد قبل المواجهة، ودور عملي، تجسّد في المشاركة الفعلية لكثير من أعلام الصوفية في المعارك والصدام العسكري.

ومن أشهر الأبطال الروحيين لمعركة وادي المخازن، الذين أسهموا بقسط وافر في ترجيح كفة

(سبستيان)، فلم يتردّد ملك البرتغال في قبول طلب المتوكل، واشتراط عليه شروطاً قاسية، فقبلها السلطان "المخلوع"، وأخطر هذه الشروط: الترامه بالتنازل عن السواحل المغربية كافة لنصارى البرتغال. وبعد هذه المفاوضة غير المتكافئة بين (سبستيان) وأبي عبد الله المتوكل بدأت عملية الإعداد للزحف العسكري على ملكة مراكش، ومحاولة الإطاحة بملك الأخوين: عبد الملك، وأحمد، فتحرّكت الجيوش البرتغالية مدعومة بفرق أوروبية مختلفة من طنجة شمال المغرب، على أكمل حال، متجهة نحو مدينة القصر الكبير الواقعة على مسافة ٣٠ كيلو متراً من مدينة العرائش المطلة على الأطلسي، وذلك سنة ١٥٧٨م.

واستدّرج الجيش البرتغالي ومن معه إلى ما وراء وادي المخازن على مقربة من القصر الكبير (٣٠ كيلو متراً عن الساحل)، حتى يُمنع من الاتصال بالمدد من ورائه في البحر. واجتاز (سبستيان) وجنوده الجسر الوحيد على هذا الوادي، وألقى أثقاله، ونصب خيامه في انتظار ساعة الصدام، وبعد تمام الجواز أمر عبد الملك بهدم قنطرة الوادي حتى يمنع النصارى من الفرار، وكانت مكيدة منه.

وبالتزامن مع حركة الجيش الصليبي كانت استعدادات المغاربة لهذه التنازلة جارية على قدم وساق، رسمياً وشعبياً، فقد عمل الأخوان عبد الملك وأحمد على حشد جيوش الجنوب والشمال، وأيّدتهم في ذلك القادة الدينيين من علماء التصوف وشيوخه...، وكان الجميع على موعد واحد في ساحة وادي المخازن صباح الاثنين من جمادى الآخرة سنة ٩٨٦هـ.

التقت الفئتان، وزحف بعضهم إلى بعض، وحمي الوطيس...، وبعد مدة قصيرة من نشوب المعركة وافت المنيّة عبد الملك السعدي متأثراً بمرض ألم به قبل أيام من المعركة، فكتم حاجبه خبر موته، حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً، وبعد صبر ومجاهدة، دارت الدائرة على نصارى البرتغال، ولوّوا منهزمين يقصدون القنطرة، فألقوها مهدمة، فارتموا في النهر يحدوهم أمل النجاة، فمات أغلبهم غرقاً في النهر، ومنهم الملك (سبستيان) ومستنصره المتوكل السعدي<sup>(٣٩)</sup>.

غزوة وادي المخازن، وأبلى فيها البلاء الحسن،<sup>(٤٥)</sup> وقد وصفه ابنه في (المرآة) قائلاً: "وكان شجاعاً رابطاً الجأش، ثابت الجنان، لا تستغزؤه الحوادث، ولا تهزؤه الطوارق. ولقد كان في أحد الجناحين - وأظنه الميسرة - من عساكر المسلمين في مقابلة النصارى - دمرهم الله - ومقاتلتهم في الغزوة العظمى التي كانت بتامة من حوز القصر... فوقع في ذلك الجناح انكسارٌ ترحز به المسلمون عن مصافهم، وحملت عليهم النصارى - دمرهم الله - فثبت الشيخ، وثبت من كان معه، إلى أن منح الله المسلمين النصر، وركبوا أكثاف عدوهم، يقتلون ويأسرون، والشيخ لم يتزلزل، ولم يلتفت منذ توجه إلى قتالهم حتى فتح الله عليهم".<sup>(٤٦)</sup>

وكان عمر الشيخ أبي المحاسن في أثناء المعركة حوالي خمسين سنة، ويتمتع بصحة جيدة، قادراً على القيام بأعباء الجهاد، ويبدو ذلك بجلالة من وصف دوره في أثناء المعركة، الذي نقله ابنه في (المرآة)، فأبو المحاسن تكفل بتثيبت المجاهدين في أثناء المعركة، والحيلولة دون هزيمهم وانكسارهم بالرغم من شدة حمل النصارى عليهم، وقد نجح في هذا الدور.

ومن الشيوخ وأعلام التصوف الآخرين الذين شاركوا بفعالية في معركة وادي المخازن الشيخ محمد ابن علي بن ريسون (توفي ١٠١٨ هـ)، وبالرغم من غفلة المؤرخين عن ذكر أخبار هذا الرجل في المعركة، مقارنةً بصنوه الشيخ أبي المحاسن، فإن دلائل عديدة تؤكد مشاركة الزاوية الريسونية في هذا الحدث برئاسة شيخها محمد، وعلى رأس هذه الأدلة مكافأة السلطان السعدي، أحمد المنصور السعدي، لبني ريسون على مشاركتهم، وإقطاعهم مجموع الأراضي التي دارت فيها المعركة.<sup>(٤٧)</sup>

وكانت إقامة الشيخ محمد بن ريسون في (تازروت) حيث مقر الزاوية، على مقربة من جبل العلم، ومنها كان يبث دعوته الصوفية في تلامذته ومريديه، الذين كانوا يحججون إليه من مناطق المغرب المتفرقة، وكانت بينه وبين شيخ زمانه أبي المحاسن يوسف الفاسي ألفة أكيدة منذ الصبا، إذ جمعهم مقاعد الدرس في فاس وغيرها، قال عنه

المسلمين على أعدائهم الشيخ الصوفي أبو المحاسن يوسف الفاسي، إمام الطريقة الشاذلية في البلاد المغربية في زمانه،<sup>(٤٨)</sup> فقبل نشوب الحرب، وبعدما ظهرت أمارات المواجهة بين الطرفين، وتسرب الخوف إلى نفوس المغاربة؛ جرأ الأخبار السيئة التي وصلت عنهم عن قوام الجيش البرتغالي وجهازه من جهة، واستبطائهم ووصول السلطان السعدي (عبد الملك) لنصرتهم من جهة ثانية، وبعدما بدأ الناس يفكرون في إخلاء الحواضر المصاحبة للعدو، والفرار من أمامه، والتحصن بالجبال، ولا سيما ساكنة مدينة القصر الكبير المتاخمة لميدان المعركة، أمر أبو المحاسن أحد الرجال من أصحابه بالنداء في الناس «أن الزموا بلادكم ودوركم؛ فإن عظيم النصارى مسجون حيث هو حتى يجيء السلطان من مراكش، والنصارى غنيمة المسلمين، ومن شاء فليعط خمسين أوقية للنصراني»<sup>(٤٩)</sup> وكان لهذا النداء وقع حاسم على عامة الناس؛ نظراً لبشارة النصر التي تضمنتها، والسلطان الروحي لأبي المحاسن عليهم، فهدأت نفوس الناس، ولزموا مدينتهم إلى أن قضى الله أمره.

ولا اعتقد أن أبا المحاسن يوسف الفاسي اكتفى بتثيبت الناس في منازلهم، وتهذبة روعهم، بل تجاوز هذا إلى الدعوة إلى الجهاد، والمشاركة الفعلية في المعركة، والاستعداد لذلك مادياً ومعنوياً، واعتقد - في السياق نفسه - تجاوب الكثيرين مع دعوته، وتلبثتهم نداء الجهاد؛ نظراً لصيت الشيخ، ونفوذه الروحي، وبخاصة تلامذة الشيخ المنتشرون في مختلف أنحاء المغرب، وتحديدًا في أقاليم الشمال؛ إذ لا يجوز - في منطق التصوف - أن يتخلف المريد عن الشيخ في مثل هذه الأحداث والنوازل.<sup>(٥٠)</sup> وأقوى الأدلة على هذا الزعم: خبر أصحاب القبة المعروفة بفاس بقبة "سبعة رجال"، ويذكر أنهم من أصحاب أبي المحاسن الذين شاركوه معركة وادي المخازن، وحيء لهم جرحى إلى المدينة، وعند وفاتهم دفنوا إلى جواره في القبة المعروفة بعددهم، قبة "سبعة رجال".<sup>(٥١)</sup>

أمّا في أثناء الحرب فلم يفوت الشيخ أبو المحاسن على نفسه فرصة المشاركة في هذه الملمحة الجهادية، وحضر

وَعَلَّيْ كَفَّةَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى أَعْدَائِهِمُ الصَّالِبِينَ.

إِنَّ دَوْرَ الْحَرَكَةِ الصُّوفِيَّةِ فِي مَعْرَكَةِ وَادِي الْمَخَازِنِ، الَّذِي حَاوَلْتُ تَبْيِينُهُ فِي الْفَقَرَاتِ السَّابِقَةِ، كَانَ دَوْرًا حَاسِمًا وَفَعَالًا، عَلَى الصَّعِيدَيْنِ الرُّوحِيِّ وَالْعَمَلِيِّ، فَلَمْ يَكْتَفِ أَشْيَاخُ التَّصَوُّفِ بِدِلَالَةِ النَّاسِ عَلَى وُجُوهِ فَضْلِ الْجِهَادِ، وَوُجُوهِهِ فِي وَقْتِهِمْ، بَلْ تَجَاوَزُوا ذَلِكَ إِلَى قِيَادَةِ الْمَعَارِكِ الْعَسْكَرِيَّةِ، وَالْإِخْرَاطِ الْفِعْلِيِّ فِيهَا، وَهُوَ مَا جَعَلَ هَذِهِ الْغَزْوَةَ - عَلَى حَدِّ تَعْبِيرٍ بَعْضُهُمْ - غَزْوَةً رُوحِيَّةً وَدِينِيَّةً، يُهَيِّمُنُ فِيهَا الْقَصْدُ الدِّينِيُّ عَلَى بَقِيَّةِ الْمَقَاصِدِ، الْأَمْرُ الَّذِي يُقَلِّلُ مِنْ أَمِيَّةِ اتِّهَامِ أَشْيَاخِ التَّصَوُّفِ وَطُرُقِهِمْ - عَلَى الْأَقْلَى فِي هَذِهِ الْمَرَحَلَةِ - بِالْإِنْسِحَابِ مِنْ حَيَاةِ الظَّاهِرِ، وَإِهْمَالِهِمُ لِلشَّأْنِ الدُّنْيَوِيِّ، وَتَعَلُّقِهِمْ بِالْبَاطِنِ وَحَالِهِ.

رَابِعًا: الْإِنْعِكَاسَاتُ السِّيَاسِيَّةُ وَالْحَضَارِيَّةُ لِمَعْرَكَةِ وَادِي الْمَخَازِنِ

تُعَدُّ مَعْرَكَةُ وَادِي الْمَخَازِنِ - بِالنَّظَرِ إِلَى نَتَائِجِهَا - مِنْ الْأَحْدَاثِ التَّارِيخِيَّةِ الْقَلِيلَةِ الَّتِي اسْتَطَاعَتْ أَنْ تُغَيِّرَ وَجْهَ التَّارِيخِ فِي الْغَرْبِ الْإِسْلَامِيِّ، فَبَعْدَ مَا وَصَلَتْ خُرُوبُ الْإِسْتِرْدَادِ فِي الْأَنْدَلُسِ إِلَى مَدَاهِهَا، بِالْقَضَاءِ عَلَى إِمَارَةِ غِرْنَاطَةِ وَطُرْدِ الْمُسْلِمِينَ مِنْهَا؛ وَتَمَكَّنِ الْبُرْتِغَالِيُّونَ وَالْإِسْبَانِيُّونَ مِنْ اِحْتِلَالِ أَهَمِّ الثُّغُورِ الشَّاطِئِيَّةِ الْمَغْرِبِيَّةِ عَلَى الْوِجْهَتَيْنِ، الْأَطْلَسِيَّةِ وَالتُّونِسِيَّةِ، بِالإِضَافَةِ إِلَى التَّرَهُّلِ الدَّاخِلِيِّ الَّذِي كَانَ يَعْيشُهُ الْمَغْرِبُ بِسَبَبِ الْإِنْقِسَامِ الدَّاخِلِيِّ وَالصَّرَاعِ عَلَى السُّلْطَةِ بَيْنَ الْوَطَاسِيِّينَ وَالسَّعْدِيِّينَ وَغَيْرِهِمَا...، تَوَقَّعَ عَدَدٌ كَبِيرٌ مِنَ الْمَغَارِبَةِ انْكَسَارًا عَسْكَرِيًّا مُدَوِّيًّا فِي مَعْرَكَةِ وَادِي الْمَخَازِنِ أَمَامَ الْجَيْشِ الْبُرْتِغَالِيِّ الْمَدْعُومِ بِعَدَدٍ مِنَ الْفِرَقِ الصَّالِبِيَّةِ الْأُورُوبِيَّةِ وَالْكَنِيسَةِ الْكَاثُولِيكِيَّةِ، وَمِنْ ثَمَّ تَرْتَفِعُ الْحَوَاجِزُ أَمَامَ نَصَارَى الْعَدُوَّةِ لِلسَّيْطَرَةِ عَلَى الدَّاخِلِ الْمَغْرِبِيِّ بَعْدَمَا أَحْكَمُوا - تَقْرِيبًا - سَيِّطَرَتَهُمْ عَلَى الشُّوْطَاعِي، لَكِنْ، وَعَكْسَ كُلِّ التَّوَقُّعَاتِ، أَدَّتْ هَذِهِ الْمَعْرَكَةُ إِلَى انْعِطَافَةٍ تَارِيخِيَّةٍ مُهِمَّةٍ فِي مُسْتَوِيَّاتٍ عَدَّةٍ: سِيَاسِيَّةٍ، وَحَضَارِيَّةٍ، وَثَقَافِيَّةٍ.

١- فعلى الصَّعِيدِ السِّيَاسِيِّ: أَدَّتْ مَعْرَكَةُ وَادِي الْمَخَازِنِ إِلَى هَزِيمَةِ نِكَرَاءِ الْجَيْشِ الْبُرْتِغَالِيِّ وَحُلَفَائِهِ، تَمَثَّلَتْ فِي فَقْدِهِمْ آلَافِ الْجُنُودِ، بِالإِضَافَةِ إِلَى مَقْتَلِ الْمَلِكِ (سَبْسْتِيَان) غَرْقًا فِي الْوَادِي، الْأَمْرُ الَّذِي انْعَكَسَ عَلَى قُوَّةِ

صَاحِبِ (المرآة): "وهو من أهل العلم والولاية، والبركات الظاهرة، كثير التلميذ، كثير النفع، عظيم الشهرة، وجهة القاصدين، ومحط رحال الزائرين".<sup>(٤٨)</sup>

واعتقد، بناءً على التفوذ الروحي لهذه الزاوية في القرن العاشر، وبخاصة في شفشاون وأندلس، أن أتباعها ومريديها أسهموا بفعالية في معركة وادي المخازن، ولتوا نداء شيخها ودعوته للجهاد، إذ الفضل "في حشد ذلك العدد الهائل من المقاتلين يرجع إلى مولاي إسماعيل بن علي الريسوني، الذي كان آنذاك هو رئيس الزاوية الريسونية بتازروت"،<sup>(٤٩)</sup> وصديقه أبي المحاسن يوسف الفاسي.

ومن جهة أخرى، تؤكد معظم المصادر التي أتت على ذكر قوام الجيشين، المغربي والبرتغالي، في هذه الواقعة على التفوق العددي لجيش البرتغال، الذي بلغ عدده حوالي سبعين ألف جندي، على أقل تقدير؛ إذ رفعت بعض المصادر هذا العدد إلى (١٢٠) ألف رجل أو يزيد، بينما بلغ عدد الجنود المغربية في هذه المعركة حوالي (٤٠) ألف جندي، وبالإضافة إلى التفوق العددي للبرتغاليين في هذه المعركة، فقد تفوقوا -أيضاً- في العتاد وآلة الحرب، التي كانت متطورة كثيراً عن آلة الجيش المغربي وعُدَّتِهِ.<sup>(٥٠)</sup>

وهكذا، كان الجيش المغربي في معركة وادي المخازن أضعف بكثير من الجيش البرتغالي، سواء من حيث العدد أو العدد، غير أن القوة الضاربة التي كان يخبئها جيش المغربية، ولم يتفطن لها البرتغاليون وغيرهم، أو أساووا تقديرها، هي القوة الروحية، التي جسدها الإيمان القوي، والحماس الروحي الذي كان يملأ نفوس جند المغرب وقلوبهم، والذي أسهم في إيقاظ جذوته أشياخ المتصوفة المشاركون في هذا الحدث والحاقدون الدعم له؛ فجيش عبد الملك السعدي وأخيه أحمد في هذه المرحلة لم يكن منظمًا ولا مُحترَفًا على نحو كافٍ يُمكنه من إلحاق الهزيمة بالبرتغاليين ومن معهم من الصليبيين، فمعظم كتابيه كانت تتكون من المتطوعين من القبائل، بالإضافة إلى أهل الأندلس - الأكثر جاهزية - وأهل فاس، وأهل مراكش الذين جاؤوا مع عبد الملك السعدي...، وشرذمة من الترك، غير أن حماسهم الديني، واندفاعهم الروحي غير من معطيات القوى بين الطرفين المتحاربين،

ومن أبرز المجالات التي تجلّى فيها المردود الحضاري بعد "وادي المخازن" مجالاً: الجيش والعمران.

فبعد مُدَّةٍ وجيزةٍ من توليته، عمِلَ أحمد المنصور على تجديد الجيش، وإعادة تنظيمه، وتطوير شاراته، وقد وصف مؤرخو الدولة السعدية جيش المنصور وهيئته بنوع من الدقة، ومن أهم ما يلفت الانتباه في هذا الجيش من الناحية الحضارية الزيادة الكبيرة في مظاهر الأبهة العسكرية، سواء منها المتعلقة باللباس، أو الأصناف، أو الهيئة والأدوار، أو الموسيقى العسكرية... الأمر الذي لم يكن موجوداً في السابق، أو في أفضل الأحوال، كان موجوداً بعضه بنسبة ضعيفة. وقد كان السلطان أحمد المنصور في هذه التجديدات مستلباً من طرف النموذج العسكري العثماني، إذ حاول تقليده في أكثر من جانب، بالرغم من الفارق الكبير بينه وبين العثمانيين.<sup>(٤٩)</sup>

أمّا في المجال العمراني فأهم معلمة عمرانية بناها أحمد المنصور السعدي، والتي تظهر عظمة دولته، قصر البديع في مراكش، الذي استغرق بناؤه حوالي ست عشرة سنة (من ٩٦٨-١٠٠٢هـ)، وحاول من خلاله التغطية على مآثر من سبقه من سلاطين المغرب الرباطين والموحدين والمرينيين، وحشد له الصناعات من كل البلاد، بما فيها بلاد الإفرنج، وسيقت له المواد من أصقاع بعيدة، ومن بلاد الروم.

وقصر البديع دارٌ مربعة الشكل، في كل جهة منها قبة راقعة الهيئة، وتتوسطها جنات وأشجار، وما زالت آثاره شاهدة على عظمته إلى اليوم. وإلى جانب قصر البديع ازدهر العمران المغربي في هذا العهد، إذ ظهرت مدنٌ جديدة، واتسع نطاق أخرى، ومن أشهر الأمثلة على هذا تأسيس مدينة أكادير، وتجديد بناء تطوان، واتساع عمرانها، وكذا اتساع مدينة شفشاون...<sup>(٥٠)</sup>

٣- على الصعيد الثقافي: شهد مغرب ما بعد معركة وادي المخازن ازدهاراً ثقافياً ملحوظاً، أنسى المغاربة حمول القرنين التاسع والعاشر وخطاطهما؛ إذ ظهرت في بداية القرن الحادي عشر نخبة علمية مهمة، اشتغلت بأجناس العلوم، وصنفت في أبوابها مصنّفات متعدّدة، وقد لفتت هذه الظاهرة في العهد السعدي انتباه عدد من الباحثين

دولة البرتغال في هذا العهد، إذ تحوّلت من دولة عظمى، تتحكّم في البحار وتجوب أساطيلها الأطلسي...، إلى دولة ضعيفة، هيمن عليها التاج الإسباني، الذي استغل فرصة هذا الانكسار، وسعى إلى تحقيق طموحه في توحيد شبه الجزيرة الأيبيرية تحت راية السلطان الإسباني.

أمّا في الصفة الجنوية فقد حسمت معركة وادي المخازن الصراع على السلطة بين أبناء البيت السعدي؛ إذ لقي المتوكل السعدي الملقب بالسلوخ في هذه المواجهة حتفه غرقاً، إلى جانب نصيره (سبستان)، كما أن الملك عبد الملك السعدي هو الآخر وافته المنية على أرض المعركة؛ بسبب المرض الذي ألم به، الأمر الذي هيأ الأسباب والشروط لتولية أخيه أحمد المنصور، الذي استطاع في ظرف وجيز؛ وبسبب أجواء وادي المخازن، إعادة توحيد المملكة، وبناء الدولة على أسس أكثر متانة، ودون نزاع معتبر حول شرعيته، وقد اتخذ من الدولة العثمانية نموذجاً يُحتذى....

ومن ناحية أخرى تقاطرت الرسل والسفارات على البلاط السعدي في هذه الفترة مهتة بالنصر من جهة، وخاطبة ودّ المملكة القوية التي ظهرت على مسرح الأحداث فجأة من رجم أزمة سياسية وعسكرية حادة، بحيث أصبحت المملكة المغربية في هذا العهد موهوبة الجانب من الأقرباء والبعداء؛ فعلى سبيل المثال، انقطعت أحلام العثمانيين في السيطرة على المغرب بعد هذه المعركة، كما انسحب البرتغاليون من جل الثغور التي كانت محتلة...، وتوسعت رقعة المملكة جنوباً إلى بلاد السودان التي أضحت تابعة للعرش السعدي...

٢- على الصعيد الحضاري: إن الانعكاسات الإيجابية المبشرة لمعركة وادي المخازن على الأوضاع العامة في المغرب أدت إلى انعكاسات أخرى غير مباشرة، وأكثر أهمية، مسّت مجالات عدّة من الحضارة المغربية، فبعد سنوات من الركود والاضطراب، والتقهقر الحضاري؛ بسبب عدم الاستقرار السياسي، وانشغال الدولة بحروبها الداخلية والخارجية، استؤنف النشاط الحضاري بعد معركة وادي المخازن في عهد السلطان أحمد المنصور السعدي،

### الخلاصة:

اضطلعت الحركة الصوفية خلال المائة العاشرة وبداية المائة الحادية عشرة بأدوار استراتيجية وحضارية مهمة؛ ففي الوقت الذي كان يُعاني فيه المغرب من اغيار سياسي حاد، وغياب شبه تام للسلطة، قام رجال التصوف بالتدبير الروحي للشأن العام، وفرض حد أدنى من النظام بسلطة الكرامة والولاية، وقد نجح هؤلاء إلى حد ما في الحفاظ على تماسك الجماعة المغربية، ونفوذ الشريعة المحمدية، كما نجحوا - أيضاً - في الدفاع عن حوزة الوطن، ومواجهة الأخطار الصليبية التي كانت تهدد المغرب بعدما ظهر عجز الدولة، أو ما تبقى منها، عن القيام بواجبها في هذا الباب، وخير مثال على ذلك معركة وادي المخازن. يقول محمد العربي الفاسي في (المرآة) مُحدثاً عن الشيخ أبي بكر محمد المجاطي الدلائي (توفي ١٠٢١هـ): "وَحَسْبُكَ أَنْ الْمَغْرِبَ لَمَّا تَدَاعَتْ قَوَاعِدُهُ، وَانْهَدَّتْ أَرْكَانُ الْمُلْكِ بِهِ؛ فَاخْتَلَّ النَّظَامُ، وَمَاجَ النَّاسُ، كَانَ مَوْثِلاً لِأَهْلِ الْعِلْمِ وَالْدِّينِ، وَمُورِداً لِلضُّعْفَاءِ وَالْمَسَاكِينِ؛ فَاعْتَصَمَ الْإِسْلَامُ بِرَبْوَةٍ مِنْهُ ذاتِ قَرَارٍ مَكِينٍ، فَهُوَ الَّذِي أَمْسَكَ رَمَقَهُ، وَأَبْقَى رِوَاةَ وَرَوْنَقِهِ"<sup>(٥٥)</sup> ومن ثم، فلن نباع إذا عددنا هذا القرن، والذي يليه، عصراً ذهبياً للحركة الصوفية في المغرب الأقصى، ولا أدل على فُرادة هذا العصر وتقدمه صوفياً من ظهور "الدولة - الزاوية"، التي حاولت تدبير ظاهر المؤمنين، كما تدبر باطنهم، وأشهر مثال على هذا النوع دولة الدلائيين في عهد شيخها محمد الحاج وأولاده، التي حكمت طرفاً مهماً من وسط المغرب، وامتد نفوذها إلى فاس ومكناسة وأحوازهما، واختفت بعد توالي الضربات الموجعة عليها من طرف العلويين، الذين سطع نجمهم بسجلماسة، إذ تمكن أحد زعمائهم، وهو المولى رشيد العلوي، من القضاء عليها سنة ١٠٧٩هـ، وطمس معالمها، وشرّد شيوخها، وحمل بعضهم على سكنى فاس، ثم نفاهم بعد ذلك إلى تلمسان.<sup>(٥٦)</sup>

والمؤرخين، وعلى رأسهم الباحث اللامع والمؤرخ الفذ محمد حجي - رحمه الله - الذي سلط الضوء على هذا الموضوع في أطروحته الرائعة عن "الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين"، والذي عولنا عليه في أكثر من مناسبة في هذه الدراسة.

ومن أشهر المؤلفات التي ترجع إلى ذلك العصر، والتي بلغت شهرتها الآفاق: كتاب (وقف القرآن) لمحمد البهطي السمائي (٩٣٠هـ)، الذي ما زال العمل جارياً عليه في أقطار المغرب منذ عهد المؤلف، بالإضافة إلى عشرات الشروح والخواشي على مصنفات وكُتب مختلفة في التفسير والحديث والعقيدة والفقه، وكتاب (الكليات) للإمام ابن الغازي، والأرجوزة الفقهية الصغرى (المُرشد المعين على الضروري من علوم الدين) لمؤلفها عبد الواحد بن عاشر (١٠٤٠هـ)، التي يحفظها كثير من الناس اليوم، وتدل بأسلوب بسيط ومختصر على عقيدة الأشعرية، وفقه مالك، وتصوف الجنيد، وينضاف إلى هذه الكتب كثير آخر في أبواب التصوف، واللغة والأدب... وقد أتى على ذكر طائفة منها (حجي) في أطروحته، وعنه نقلنا هذه الأمثلة.<sup>(٥٣)</sup> ومما يعكس - أيضاً - الصحو الثقافية التي عاشها المغرب في هذا العهد ظهور عشرات من المكتبات العامة والخاصة في مختلف أنحاء المغرب، وقد أحصى (حجي) في عمله حوالي اثني عشر مكتبة عامة، وأشهرها مكتبة القرويين في فاس، وخمس عشرة مكتبة خاصة في فاس والريف ومراكش وتبكتو....<sup>(٥٤)</sup>

ومما ينسب بطريق غير مباشرة لمعركة وادي المخازن، ويُعد من نتائجها الثقافية، ازدهار الحركة الصوفية، وتجذر شرعيتها الاجتماعية والثقافية، فقد ازداد الالتفاف حول أقطاب التصوف، وزاد الخضوع لهم، إذ عد نصر وادي المخازن من كراماتهم، وتأييداً ربانياً لهم، ودليلاً على صدق دعواهم، وتجسد ذلك في انتشار الزوايا في مختلف الحواضر والبوادي المغربية، وأمسى من التادر والعزير العثور على مغربي لا يدين بالولاء لشيخ معين، أو زاوية محددة، الأمر الذي هيأ الزوايا والطرق الصوفية عموماً للقيام بأدوار اجتماعية وثقافية مهمة.

## المراجع

- (١) الوَطَّاسِيُون: فِرْقَةٌ مِنْ بَنِي مَرِين، لَيْسُوا مِنَ الْقَبِيلِ الَّذِي كَانَ يَحْكُمُ الدَّوْلَةَ، اسْتَقَرُّوا فِي بِلَادِ الرِّيفِ، بَعْدَ قِيَامِ الدَّوْلَةِ الْمَرِينِيَّةِ.
- (٢) الناصري، أحمد. الاستقصا، تحقيق: جعفر الناصري، ومحمد الناصري، الدار البيضاء: دار الكتاب، ١٩٥٥م، ج ٤، ص ١١٨-١٥٦.
- (٣) حركات، إبراهيم. السياسة والمجتمع في العصر السعدي، الدار البيضاء: دار الرشد الحديثة، ١٩٨٧م، ص ٢٦، ٢٧.
- (٤) المرجع السابق، ص ٢٨.
- (٥) الناصري، الاستقصا، مرجع سابق، ج ٤، ص ١١٠، ١١١.
- (٦) الإفرائي، محمد الصغير. نزهة الحادي في أخبار ملوك القرن الحادي، تحقيق: عبد اللطيف الشاذلي، الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة، ط ١، ١٩٩٨م، ص ٧٣. انظر أيضاً:
- الناصري، الاستقصا، مرجع سابق، ج ٤، ص ١٥٩، ١٦٠.
- (٧) الإفرائي، نزهة الحادي في أخبار ملوك القرن الحادي، مرجع سابق، ص ١٠٣.
- (٨) حول بداية دولة السعديين والتحديات التي واجهتها انظر:
- الإفرائي، نزهة الحادي في أخبار ملوك القرن الحادي، مرجع سابق، ص ٤٠-١٢٨.
- (٩) إنَّ تَارِيخَ إِحْرَاقِ "الإحياء" غَيْرُ مَضْبُوطٍ لَدَى الْمُرَّخِّينَ؛ فَبَعْضُهُمْ يَجْعَلُهُ سَنَةَ ٥٠٣هـ، وَبَعْضُهُمُ الْآخَرُ يُؤَخِّرُهُ إِلَى سَنَةِ ٥٠٧هـ، وَهُوَ الْأَرْحَجُ فِيمَا أَعْتَقْتُ، وَحَوْلَ تَحْقِيقِ تَارِيخِ حَرْقِ "الإحياء" انظر:
- القبلي، محمد. مراجعات حول المجتمع والثقافة بالمغرب الوسيط، الدار البيضاء: دار توبقال، ط ١، ١٩٨٧م، ص ٢٥.
- (١٠) ابن عذاري، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق: إحسان عباس، بيروت: دار الثقافة، ط ٢، ١٩٨٠م، ج ٤، ص ٥٩. انظر أيضاً:
- بنسباغ، مصطفى. السُّلْطَةُ بَيْنَ التَّسَنُّنِ وَالتَّشْيِيعِ وَالتَّصَوُّفِ مَا بَيْنَ عَصْرِي الْمُرَابِطِينَ وَالْمُوَحِّدِينَ، تطوان: منشورات الجمعية المغربية للدراسات الأندلسية، ط ١، ١٩٩٩م، ص ٨٠، ٨١.
- (١١) بنسباغ، السُّلْطَةُ بَيْنَ التَّسَنُّنِ وَالتَّشْيِيعِ وَالتَّصَوُّفِ مَا بَيْنَ عَصْرِي الْمُرَابِطِينَ وَالْمُوَحِّدِينَ، مرجع سابق، ص ١٠٩-١١١.
- (١٢) المراكشي، ابن عبد الملك. الذيل والتكملة، تحقيق: محمد بن شريفة، الرباط: منشورات أكاديمية المملكة المغربية، ١٩٨٤م، السُّفَرُ الثَّامِنُ، الْقِسْمُ الْأَوَّلُ، ص ٢٥٠. انظر أيضاً:
- القبلي، مراجعات حول المجتمع والثقافة بالمغرب الوسيط، مرجع سابق، ص ٢٥.
- (١٣) الشريف، محمد. نصوص جديدة ودراسات في تاريخ الغرب الإسلامي، تطوان: مطبعة الهداية، ط ١، ١٩٩٦م، ص ١١. انظر أيضاً:
- القبلي، مراجعات حول المجتمع والثقافة بالمغرب الوسيط، مرجع سابق، ص ٢٦.
- (١٤) إِنَّ الْمُتَّصِفَةَ - عَلَى مَا يَدُو - خِلَالَ الْعَصْرِ الْمَرِينِيِّ كَانُوا خَارِجَ حِسَابَاتِ السُّلْطَةِ، وَيَعِيدِينَ عَنْهَا، فَلَمْ يَعَارِضُوهَا بِشَكْلِ صَرِيحٍ، كَمَا أَنَّهُمْ لَمْ يُؤَيِّدُوهَا، وَلَعَلَّ أُبْرَزَ مِثَالٍ عَلَى هَذِهِ الْعِلَاقَةِ مَا يَذْكُرُهُ الْمُرَّخُّونَ عَنْ تَحَاشِيِ الْوَلِيِّ أَحْمَدَ بْنِ عَاشِرٍ السَّلَاوِيِّ لِقَاءَ السُّلْطَانِ أَبِي عَنَانَ الْمَرِينِيِّ فِي أَثْنَاءِ زِيَارَتِهِ لِسَلَا. انظر:
- القبلي، مراجعات حول المجتمع والثقافة بالمغرب الوسيط، مرجع سابق، ص ٨٨.
- (١٥) الإفرائي، نزهة الحادي في أخبار ملوك القرن الحادي، مرجع سابق، ص ٤٢، ٤٣. انظر أيضاً:
- ابن عسكرك، محمد. دوحه الناشر، تحقيق: محمد حجي، الدار البيضاء: منشورات مركز التراث الثقافي المغربي، ط ٣، ٢٠٠٣م، ص ١٠٣، ١٠٤.
- (١٦) ابن عسكرك، دوحه الناشر، مرجع سابق، ص ١٠٣.
- (١٧) العافية، عبد القادر. الحياة السياسية والاجتماعية والفكرية بشفشاون وأحوازا خلال القرن العاشر الهجري، الرباط: منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ١٩٨٢م، ص ١٩٩، ٢٠٠.
- (١٨) ابن عسكرك، دوحه الناشر، مرجع سابق، ص ٨٨-٩١.
- (١٩) المرجع السابق، ص ١٤، ١٥، ٢٣، ٢٧، ٣٨، ٥٩، ١٢٦.
- (٢٠) الفاسي، أبو حامد محمد العربي. مرآة المحاسن، تحقيق: محمد حمزة الكتاني، فاس: منشورات مركز التراث الثقافي العربي، ودار ابن حزم، ط ١، ٢٠٠٨م، ص ٢٠٥.
- (٢١) المرجع السابق، ص ١٧٨-١٩٨.
- (٢٢) العافية، الحياة السياسية والاجتماعية والفكرية بشفشاون وأحوازا خلال القرن العاشر الهجري، مرجع سابق، ص ٢٠٢.
- (٢٣) الإفرائي، نزهة الحادي في أخبار ملوك القرن الحادي، مرجع سابق، ص ٩٠، ٩١.
- (٢٤) ابن عسكرك، دوحه الناشر، مرجع سابق، ص ١٠٠، ١٠١.
- (٢٥) الناصري، الاستقصا، مرجع سابق، ج ٥، ص ٢٦. انظر أيضاً:
- ابن عسكرك، دوحه الناشر، مرجع سابق، ص ٧٢، ٧٣.
- (٢٦) ابن عسكرك، دوحه الناشر، مرجع سابق، ص ١١٢، ١١٣. انظر أيضاً:



- حَجِّي، مُحَمَّد. الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السَّعديين، الرباط: منشورات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، ١٩٧٦م، ج١، ص٢٣٧-٢٤٠.
- (٢٧) حَجِّي، الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السَّعديين، مرجع سابق، ص٢٤١-٢٤٥.
- (٢٨) ابن عسكرو، دوحه الناشر، مرجع سابق، ص٩٩.
- (٢٩) حَجِّي، الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السَّعديين، مرجع سابق، ص١٤٦-١٤٨.
- (٣٠) ابن عسكرو، دوحه الناشر، مرجع سابق، ص١٤.
- (٣١) مَا زال -فيما أعلم- كتاب (تنبيه الهِمَمِ العاليةِ مخطوطاً، ونُسخته في الخزانة الوطنية في المملكة المغربية، وقد ذَكَرَ مُحَمَّد حَجِّي خلاصةً مُركَّزةً للكتاب في أطروحته حول الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السَّعديين، ومنها نقلت هذه الدَّرَاتِ المُعبرة. انظر:
- حَجِّي، الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السَّعديين، مرجع سابق، ص١٩٨-٢٠١.
- (٣٢) ابن عسكرو، دوحه الناشر، مرجع سابق، ص٦٥-٦٧.
- (٣٣) حَجِّي، الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السَّعديين، مرجع سابق، ص٢٠٣، ٢٠٢.
- (٣٤) ابن عسكرو، دوحه الناشر، مرجع سابق، ص٥٧.
- (٣٥) حَجِّي، الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السَّعديين، مرجع سابق، ص١٩٨.
- (٣٦) ابن عسكرو، دوحه الناشر، مرجع سابق، ص٥٧-٥٩.
- (٣٧) المرجع السابق، ص٣٨.
- (٣٨) المرجع السابق، ص٣٥.
- (٣٩) الإفرائي، نزهة الحادي في أخبار ملوك القرن الحادي، مرجع سابق، ص١٣٩-١٤٣. انظر أيضاً:
- الناصري، الاستقصا، مرجع سابق، ج٥، ص٥٧-٨٦.
- أبو خليل، شوقي. وادي المخازن، لبنان-دمشق: دار الفكر المعاصر، دار الفكر، ط١، ١٩٨٨م، ص٦١-٦٨.
- (٤٠) الإفرائي، نزهة الحادي في أخبار ملوك القرن الحادي، مرجع سابق، ص١٣٩.
- (٤١) الشيخ أبو المحاسن يوسف الفاسي: من مواليد مدينة القصر الكبير، على مقربة من وادي المخازن، تلقى في بلده عن ثلَّة من العلماء، ثم تردَّد على فاس للاستزادة، كما تلقى عن عددٍ من مشايخ الصُوفيَّة في عصره، وكانت وفاته - رحمه الله - في ربيع الأول سنة ١٠١٣هـ. انظر:
- الفاسي، مرآة المحاسن، مرجع سابق، ص٢٨٦.
- الكتاني، أبو عبد الله محمد. سلوة الأنفاس، الدار البيضاء: دار الثقافة، ١٩٨٠م، ج٢، ص٣٤٥-٣٤٨.
- (٤٢) الفاسي، مرآة المحاسن، مرجع سابق، ص٢١٦.
- (٤٣) كَانَ لأبي المحاسن تلامذة كَثُرَ في أنحاء مختلفة من المغرب، وقد ترجم لبعضهم الإفرائي في "صفوة من انتشار"، والقادري في "نشر المثاني"، ومحمد داود في "تاريخ تطوان"...
- (٤٤) الكتاني، سلوة الأنفاس، مرجع سابق، ج٢، ص٣٤٠.
- (٤٥) الفاسي، مرآة المحاسن، مرجع سابق، ص٢١٦.
- (٤٦) المرجع السابق، ص١٤٧.
- (٤٧) عبد الله، عبد العزيز، العلميون والإشعاع العلمي والروحي، ص١٠٥.
- <http://www.abdelazizbenabdallah.org/oeuvres/docs/alalamiine.pdf>
- (٤٨) الفاسي، مرآة المحاسن، مرجع سابق، ص٤٠٩.
- (٤٩) حكيم، محمد بن عزوز. مساهمة رباط تازروت في معركة وادي المخازن، فاس: دار ابن حزم، ط١، ٢٠٠٨م، ص٣٩.
- (٥٠) الإفرائي، نزهة الحادي في أخبار ملوك القرن الحادي، مرجع سابق، ص١٣٩، ١٤٠. انظر أيضاً:
- مجهول، تاريخ الدولة السَّعدِيَّة التكمادرتية، تحقيق: عبد الرحيم بنحادة، الدار البيضاء: منشورات عيون المقالات، ط١، ١٩٩٤م، ص٥٨، ٦١.
- شوقي، وادي المخازن، مرجع سابق، ص٥٥-٥٨.
- الناصري، الاستقصا، مرجع سابق، ج٥، ص٨٣.
- (٥١) الإفرائي، نزهة الحادي في أخبار ملوك القرن الحادي، مرجع سابق، ص١٩٢. انظر أيضاً:
- حَجِّي، الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السَّعديين، مرجع سابق، ص٤٧، ٤٨.
- (٥٢) الإفرائي، نزهة الحادي في أخبار ملوك القرن الحادي، مرجع سابق، ص١٨٠. انظر أيضاً:
- حَجِّي، الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السَّعديين، مرجع سابق، ص٥١.
- (٥٣) حَجِّي، الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السَّعديين، مرجع سابق، ص١٣٣-١٦٨.
- (٥٤) المرجع السابق، ص١٨٢-١٩٤.
- (٥٥) الفاسي، مرآة المحاسن، مرجع سابق، ص٤٣٧. انظر أيضاً:
- الإفرائي، نزهة الحادي في أخبار ملوك القرن الحادي، مرجع سابق، ص٣٩٦.
- (٥٦) الإفرائي، نزهة الحادي في أخبار ملوك القرن الحادي، مرجع سابق، ص٤٠١-٤٠٥.